مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد ٤٠ العدد ٣ (٢٠٢٤):٢٤١-٢٧٠

Damascus university Journal of arts and humanities
Sciences vol 40 No3 (2024):241-270

بلاغةُ أسلوب الاستفهامِ في شعرِ الأديبِ الغزّيّ (ت٥٢٣هـ)

علا عمر الراضي[١]، منيرة محمد فاعور[٢]

١ –طالبة ماجستير في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.
ola2.alradi@damascusuniversity.edu.sy

٢–الأستاذة الدكتورة اختصاص البلاغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.
fa.muniraa@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

أثار أسلوب الاستفهام انتباه النحاة والبلاغيين على حد سواء؛ فدرسه النحاة في مواضع متفرقة من دون أن يخصصوا له فصلاً يجمعون فيه ما تناثر من شتات هذا المبحث، وكان جل اهتمامهم منصرفاً إلى دراسة همزة الاستفهام ومواضعها وأغراضها، إضافة إلى الفروق بينها وبين هل، أما البلاغيون فقد أفردوا للاستفهام فصلاً مستقلاً من فصول الإنشاء الطلبي في علم المعاني، درسوا فيه معاني الاستفهام وأدواته وأغراضه التي يخرج بها عن معناه الأصلي إلى معان أخرى تتناسب مع السياق.

يهدف هذا البحث إلى دراسة أسلوب الاستفهام في شعر الغزي، هذا الأسلوب الذي كان له حضور لافت عنده، وهو في مجمله لا يقتصر على المعاني الحقيقية المباشرة لأدوات الاستفهام؛ بل يتعداها في كثير من الأحيان إلى المعاني المجازية التي تناسب السياق، وعلى رأسها التقرير والاستنكار والتعجب والتوبيخ، وفي هذا البحث سعي لإبراز هذه الوجوه المجازية للاستفهام البلاغي عنده، مستعيناً بآراء بعض القدامى والمحدثين، ومعتمداً المنهج الوصفي التحليلي في تتبع ظاهرة الاستفهام عند الغزي مع ما تتضمنه من معانٍ، وما لها من تأثير في السياق.

الكلمات المفتاحية: الاستفهام، الأديب الغزي، البلاغة.

تاريخ الإيداع: ٢٠٢٣/٠٨/٢١
تاريخ القبول: ٢٠٢٣/١٠/٢٥

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

The Rhetoric of Interrogatives in Al Ghazzi Poetry

Ola Omar Al Radi[1], Muniraa Mohamed Faur[2]
1-Graduate Student, in Damascus University, Criticism and Rhetoric.
ola2.alradi@damascusuniversity.edu.sy
2-professor Dr in Damascus University, The Arabian Rhetoric.
fa.muniraa@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

The Interrogatives aroused the attention of grammarians and rhetoricians alike, so the grammarians studied it in separate places without dedicating a chapter to it in which they gathered the scattered fragments of this topic, and most of their attention was devoted to the study of the interrogative (Hamza) and its positions and purposes, in addition to the differences between it and (Hal), while the rhetoricians were singled out The question has an independent chapter from the chapters of the request construction in the Semantics of meanings, in which they studied the meanings of the Interrogatives, its tools and purposes by which it deviates from its basic meaning to other meanings that are appropriate to the context.

The questioning in the poetry of AlGhazzi writer has a remarkable presence, as it is not, in its entirety, limited to the real, direct meanings of the questioning tools; Rather, it often transcends them to the metaphorical meanings that suit the context, especially the report and the denunciation, and this researsh seeks to highlight the metaphorical aspects of his rhetorical Interrogatives, with the help of the opinions of some old and modern Researchers. Adopting the Descriptive and Analytical approach in tracking the phenomenon of interrogation at AlGhazzi poetry with the meanings it contains and its impact on the context.

Received: 21/08/2023
Accepted: 25/10/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

Keywords: Interrogatives, Al Gazzi Writer, Rhetoric.

١ . المقدمة (Introduction):

لا شك أن الاستفهام– بوصفه فناً بلاغياً إنشائياً– يشكل ظاهرة لافتة للنظر في الشعر العربي قديمه وحديثه؛ فالشعراء لم يكتفوا بتوظيف الاستفهام في أشعارهم بهدف طلب الفهم والاستفسار عن الحقيقة المتوارية؛ بل تجاوزوا ذلك إلى أغراض بلاغية تخرج بالاستفهام عن معناه إلى معانٍ أخرى تُفهم من السياق، وترفد مقاصد الشاعر في نصه من دون أن يضطر إلى التصريح المباشر بها، وهو ما يجعل المتلقي في حالة من الزهد بنصّ يهب نفسه بسهولة.

يهدف هذا البحث إلى دراسة الاستفهام عند الأديب الغزي، هذا الشاعر المبدع الذي يحوك معانيه ببراعة؛ فالاستفهام عنده يعدو كونه مجرد وسيلة لطلب المعلومة، ليغدو نمطاً فنياً راقياً يخرج به خفيةً عن المعنى الرئيس للاستفهام إلى معانٍ أخرى أكثر صلةً بالسياق الذي ترد فيه.

وقد ألمح هذا البحث إلى الفروق في أسلوب الاستفهام بين النحاة والبلاغيين، وطريقة تصور كل فريق منهم لهذا الأسلوب ودراستهم له وفقاً لهذا التصور، كما درس حضور الاستفهام البلاغي عند الأديب الغزي، موزعاً الشواهد وفق ثلاث مجموعات تبعاً لما يُطلب بأدوات الاستفهام، مشيراً إلى الأغراض التي يخرج إليها الاستفهام والمعاني التي يفيدها.

وقد توصل إلى جملة من النتائج كان أهمها: إبراز براعة الغزي في توظيف أسلوب الاستفهام في سياقاته الشعرية، بحيث يفيد معاني مجازية لا تلغي معناه الحقيقي بل ترفده وتعززه.

٢ . الدراسات المرجعية (Literature Review):

تتطرق معظم المصادر التي تناولت الغزي بالدرس إلى الجانب الأدبي في شعره؛ فتسلط الضوء على المواضيع والأغراض الشعرية عنده، في حين تهتم المصادر التاريخية[١] برحلاته وأساتذته وممدوحيه، أما الرسائل الجامعية[٢] فهي تعتمد اعتماداً شبه كامل على ديوانه بتحقيق عبد الرزاق حسين[٣]، لما فيه من دراسة شاملة لمعظم النواحي الأدبية والتاريخية والإيقاعية في شعره، ولعناية صاحب الديوان بجمعه من مصادر شتى ومخطوطات عدة؛ إذ يخصص مقدمة مطولة للديوان يجعلها على أربعة فصول يذكر في الأول منها كل ما وصل إليه عن حياة الشاعر وعصره ورؤيته وفلسفته، ثم يدرس في الفصل الثاني الأغراض الشعرية عنده، في حين يخصص الفصل الثالث لدراسة النواحي البلاغية بخطوطها العريضة: كالتصوير البياني بأنواعه، وبعض المحسنات البديعية الإيقاعية. إلا أنه يُغفِلُ الأساليب الإنشائية والخبرية في دراسته هذه، ويدرس في باب المعاني ما ابتكره الشاعر من غريب المعاني والأمثال.

التمهيد:

[١] يُنظر مثلاً في: وفيات الأعيان: ٥٧، وفي الوافي بالوفيات: ٦/٥١، وفي معجم قبائل العرب: ٣/٩٩١

[٢] من هذه الرسائل رسالة (ديوان الغزي دراسة في الرؤية والتشكيل الفني/ دكتوراه، عبد الصمد صقر، جامعة دمشق، ٢٠٠٩) و(شعر الغزي دراسة أسلوبية وإحصائية/ دكتوراه، نور هاني سمحان، جامعة البعث، ٢٠١٦)، ومنها أيضاً (مقاربة أسلوبية لشعر أبي إسحاق الغزي، ماهر قنن، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٧).

[٣] ديوان الغزي أبي إسحاق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي (٤٤١–٥٢٣هـ)، تحقيق: عبد الرزاق حسين، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١، ٢٠٠٨م.

الأديب الغزي: هو أبو إسحاق الغزي إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي الأشهبي، وُلد في غزة بفلسطين سنة (٤٤١) للهجرة باتفاق من ترجموا له(الزركلي، د.ت،١ /٥٠) وتذكر المصادر(الغزي، ٢٠٠٨م، ٢٠) أن الشاعر كان كثير الترحال والانتقال سعياً في طلب الرزق والحياة الكريمة؛ فحياة الشاعر في القرنين الخامس والسادس مع ما فيهما من اضطرابات اقتصادية وسياسية كانت سبباً في

معاناته وفقره، وقد ترك ذلك بصمته في شعره؛ إذ نحا به نحو المديح بغرض التكسب غالباً، إلا أنه مع ذلك لا يخلو من حكم بديعة وأبيات غزلية لطيفة وأغراض شعرية أخرى تُلمح عَرَضاً في شعره.

انتقى الشاعر ديوانه هذا بناءً على رغبة الوزير بهاء الدين رشيد الدولة، وهو يذكر ذلك في مقدمة ديوانه، فيقول: "وآية ذلك أن الوزير الأجل بهاء الدين رشيد الدولة... التمس مني جمع فقر من شعري، ليروِّض نفسه بحفظها، وتأمُّل معانيها ولفظها... وقد جمعتُ له مما قلت فيه وفي غيره خمسة آلاف بيت... " (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٢٩) هي مجموع ما في هذا الديوان من شعر، ولعل تصريح الغزي هذا يسوغ غلبة المديح في الديوان على سواه من الأغراض الشعرية.

الاستفهام بين النحو والبلاغة:

الاستفهام لغةً: من الفهم، والفهم: إدراك الشيء بالقلب، واستفهمه: سأله أن يُفهِمه (ابن منظور، د.ت، مادة (فهم))، والاستفهام أسلوب من أساليب اللغة عامةً يُراد به "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة"(عتيق، ٢٠٠٩م، ٨٨)، وهو باب واسع متعدد الأدوات، مختلف الأغراض والدلالات.

وجدير بالذكر أن النحاة لم يخصصوا للاستفهام باباً مستقلاً يبيّنون فيه أحكامه ويجمعون أدواته في حيز مستقل؛ بل كان شغلهم الشاغل تتبُّع وجوه استعمال الهمزة وهل وما بينهما من فروق، ذاهبين إلى أن ألفاظ الاستفهام غير الهمزة نائبة عنها (السبكي، ٢٠٠١م، ١/٥١٤). أما بقية فصول الاستفهام ومباحثه فكانوا يعرضون لها في سياق موضوعات لغوية أخرى[٤].

أما البلاغيون فقد أفردوا للاستفهام فصلاً مستقلاً من فصول الإنشاء الطلبي في باب علم المعاني[٥]، درسوا فيه معانيه وأدواته وتعمَّقوا في تتبُّع الصلة بين الاستفهام والسياق الذي يرد فيه، مشيرين إلى الروابط المعنوية الوثيقة بينهما، فجعلوا "المقاصد التي لا تتعلق بالوضع... تتعلق بالسياق، والنسق، وما ينتج عن ذلك من معانٍ جديدة، فيها زيادة وتفاوت عن وضعها الذي كانت فيه، وبذا تتنوع الأغراض والمعاني، ولا تقف عند حدٍّ، وهذا مرتبط بغاية المتفنن، وقبول المتلقي، وما تثيره في نفسه تلك المعاني في تراكيبها المختلفة"(أبو علي، ١٩٨٨م،١١٣).

وإذا أجمع معظم البلاغيين على أن الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل مستلزماً أدوات خاصة[٦]؛ فقد عرَّفه السكاكي(ت٦٢٦هـ) بقوله: "الاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون. والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور، ولا يمتنع انفكاكه من التصديق"(السكاكي، ١٩٨٧م، ٣٠٣).

---

[٤] انظر: سيبويه، د.ت، ٩٨-١٠١-١/١٢٧

[٥] انظر في الإيضاح مثلاً: ١٠٨، وقد زاد بعض المحدثين وفصَّلوا في هذا الباب، انظر مثلاً: البلاغة أسسها وعلومها وفنونها: ٢٥٨

[٦] انظر في المفصل: ٢٦٣، وفي البلاغة في ثوبها الجديد: ٨٠

ويُقصد بالتصوُّر "معرفة المفرد" (عتيق،٢٠٠٩م، ٩٠)؛ إذ تكون النسبة معروفة والمفرد المنسوب إليه مجهولاً، والاستفهام عن التصور يكون "عند العمل بثبوت أصل الحكم لأحد الشيئين والتردد في تعيين واحد منهما" (العاكوب، ٢٠٠٠م، ٢٦٥)، أما التصديق فهو "معرفة النسبة" (عتيق، ٢٠٠٩م، ٩٠) التي تكون مجهولة ويطلب تبيُّنها، والاستفهام عن التصديق يكون "عند الجهل بثبوت أصل الحكم وتردد الذهن في النسبة (الحكم) بين ثبوتها ونفيها" (العاكوب، ٢٠٠٠م، ٢٦٥).

وبناءً عليه وُزِّعت أدوات الاستفهام تبعاً لما يُطلب بها في ثلاث مجموعات، هي: أداة التصور والتصديق معاً (الهمزة)، وأداة التصديق (هل)، وأدوات التصور (بقية أدوات الاستفهام).

تنبَّه الجرجاني(ت٤٧١هـ) أثناء دراسته للتقديم والتأخير إلى مواضع معينة يخرج فيها الاستفهام عن معناه ليفيد أغراضاً أخرى، يقول في سياق تخصيصه المتقدم من الفعل والفاعل بالإنكار: "واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكار له لمَ كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه..." (الجرجاني، د.ت، ١١٤)، وبذا يكون الجرجاني قد نبَّه وتنبَّه إلى خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى تناسب المقام، فاتحاً الباب لمن بعده لبيان هذه المعاني والتفصيل فيها.

وجدير بالذكر أن البلاغيين من بعده وقفوا على المواضع التي يخرج فيها الاستفهام عن معناه إلى معانٍ أخرى تُلمح في السياق، وهو الأمر الأهم في الاستفهام من وجهة نظرهم؛ إذ إن استخدام هذه الأدوات بحيث "يُستفهم بها عن الشيء "مع العلم به"، وهكذا يكون لها دلالات مجازية تفهم من سياق الكلام بوساطة قرائن الأحوال"(العاكوب، ٢٠٠٠م، ٢٧٠)، وقد ذكروا منها[٧]: التمني، والتعظيم، والنفي، والتهويل، والإنكار، والتعجب، وغيرها من المعاني الأخرى، مؤكدين أن التركيب الذي يخرج فيه الاستفهام إلى معنى من هذه المعاني لا ينتفي فيه معنى الاستفهام الحقيقي؛ بل يضاف إليه هذا المعنى الجديد بوصفه مزيَّة متحققة لهذا التركيب (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٧).

ولهذه المعاني البلاغية طبيعةٌ خاصة؛ إذ إنها تقرِّب بين النص والمتلقي بتشجيعه على ولوج الحالة الشعورية للشاعر، من دهشة واستنكار واستعظام وخلاف ذلك، وهي في كثير من صورها سوانح خفية أشبه بالأسرار الغامضة تجري في النفس جرياناً خفياً تحسها ولا تستطيع وصفها. فقولنا –مثلاً– إن هذا الاستفهام يفيد التقرير قولٌ ناقصٌ في كثير من الصور؛ لأن ما في هذا الاستفهام شيءٌ يختلف عن محض التقرير وإن أفاده، وإلا كانت وسيلة التقرير هي طريق أدائه (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٨).

حضور الاستفهام في شعر الغزي والمعاني البلاغية التي يخرج إليها:

يحفل شعر الغزي بمختلف الأمثلة المستحسنة للاستفهام البلاغي الذي لا يقتصر على مجرَّد طلب العلم بالشيء المسؤول عنه؛ بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك، فيغدو الاستفهام عنده وسيلة فنية تنمُّ عن مكنونات نفسه بطريقة غير مباشرة "يلجأ إليها... إذا رغب في تَجنُّب التصريح بالمعنى الذي يريده، والطريق السهل للوصول إلى هذه الغاية أن يطرح على المخاطب جملة استفهامية موجهة توجيهاً خاصاً ثم يحيطها بقرائن تجعله يدرك المعنى بنفسه" (فاعور، ٢٠١٩م، ٩٧).

وقد عمد هذا البحث إلى تتبع أمثلة الاستفهام في شعره، ثم تصنيفها في ثلاث مجموعات تبعاً لما يُطلب بها، مع دراسة المعاني التي يخرج إليها الاستفهام في كل مثال.

١– طلب التصور والتصديق معاً (الهمزة):

[٧] انظر مثلاً: الميداني، ١٩٩٦، ٢٧٠ وما بعدها.

لا شك أن الهمزة كانت أكثر أدوات الاستفهام إثارةً لانتباه الدارسين واهتمامهم، فهي في نظر النحاة (أم الباب)، "وذلك لأنها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره" (سيبويه، د.ت، ١/٩٩). فهي الأداة الوحيدة الصالحة لأن يُسأل بها عن كل شيء في الجملة في حين تختص الأدوات الأخرى بمسؤول عنه معين لا تتجاوزه إلى سواه (أبو موسى، ١٩٨٧م، ٢٠٥).

وقد اتضح من تصفح شعر الغزي أن الهمزة هي أداة الاستفهام الأكثر وروداً في شعره، وهي ترد أكثر ما ترد في مقدمات قصائده، فنراه يفتتح بهمزة الاستفهام التي تفيد تعجبه أو استنكاره أو غير ذلك من المعاني البلاغية، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في مقدمة إحدى قصائده، حيث يحاول –في سياق الغزل العذري– تصديق حقيقة ارتحال المحبوبة، يقول الغزي (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٥٤): (البسيط)

أمامك المُصمياتِ النَّبلُ والحَـــدَقُ فقيِّدِ القلبَ إنَّ الظعنَ مُنطلقُ

أما ترى الخيلَ تُكسى من سنابِكها رَكضاً حَواليه والأبطالَ تعتنقُ

في سياق مقدمة غزلية؛ يحثُّ الشاعر قلبه المتيَّم على التماسك والجَلَد، فهو يرى أن كل معطيات الواقع تفرض عليه الانهيار واليأس، فسهام العدو وسهام اللحاظ موجهة نحوه، وركاب المحبوبة تحزم أمتعتها للرحيل دونه، داعياً فؤاده إلى التنبه والاستعداد بحثِّه على النظر إلى الوقائع؛ فالخيل تهرول استعداداً للانطلاق، والأبطال تتهيأ لامتطاء صهواتها.

وبقليل جهد نستطيع أن نلحظ جمالية المطلع في هذه القصيدة؛ إذ تعاضد فيه السجع في قوله (الحدق، ومنطلق) مع الطباق في (قيِّدْ ومنطلق)، كما أن استخدام أسلوب الاستفهام ردفاً لأسلوب الأمر (قيِّدْ) قد أضفى على المعاني صبغةً تعبيرية مستحسنة، أضف إلى ذلك طلب التصديق المترتب على استخدام الهمزة، مع معنى التحضيض الذي يخرج إليه الاستفهام، فالشاعر تائهُ اللبِّ يحضُّ قلبه على التماسك أمام هذا الرحيل المباغت، "ولعل التحضيض بالاستفهام يحمل مع طلب الفعل شيئاً من التوبيخ والتعجب أيضاً" (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٧)؛ لذا كان قوله (أما ترى) تقريعاً ولوماً لنفسه وتعجباً من عدم إدراكها لما جرى.

ومن المواضع التي افتتح فيها قصيدته مستفهماً بالهمزة قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٨٠٥): (الطويل)

أعافيةٌ والدَّارُ عافيةُ الرَّسم ونُعمى حياةٍ بعد وشك نوى نُعمِ

يستنكر الشاعر أن ينعم بالعافية وقد عفا رسم الدار ودَرس، ويستبعد العيش الرغيد وقد فارقته المحبوبة وغادرته إلى غير رجعة، فكأنه للوعته يستهجن أن تستمر الحياة من دونه. وقد توقف عمره عند تلك اللحظة التي خسر فيها أعز ما يملك: دياره وأحبته.

ولا شك أن افتتاح البيت بالهمزة كان أبلغ وأعظم أثراً في نفس المتلقي، الذي استشف بقراءته الاستفهام ومعانيه ما في نفس الشاعر من حزن وانكسار وخيبة واستنكار ووحدة.

ومن المواضع التي أجاد الشاعر فيها توظيف الهمزة في مطلع قصيدته قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٦٩٩): (الطويل)

أَزُمَّت قلوبٌ للنوى أم أيانقُ وسائق يتلوهنَّ حادٍ وسائقُ

يقف الشاعر أمام المشهد المهيب لارتحال القافلة، فيتساءل متجاهلاً الحقيقة الجلية أمام عينيه: أتراهم حزموا القلوب مع أمتعتهم على ظهور هذه النياق المثقلة بأحمالها وراحوا يستحثونها للسير؟

ومن اللافت للنظر في هذا البيت براعة الشاعر في الإفادة من جمع الجمع (أيانق) لخلق سجع بين العروض والقافية، ثم مجانسته بين (وسائق: جمع وسيقة) و(وسائق: واو العطف مع لفظ سائق) جناساً تاماً عزز موسيقية البيت ورفد الاستفهام في أداء وظيفته الفنية فيه.

ومن ذلك أيضاً قوله في موضع آخر (الغزي، ٢٠٠٨م، ٦٧١): (الطويل)

أسالفةٌ أصْمَتْ فؤادك أم جِيدُ أم اللحظُ لمَّا غازلتكَ المها الغيدُ

فيبدو الشاعر مثقلاً بالأسى على حاله المتردية، وقد غدا كليل القلب عليله، فنراه متسائلاً في حيرة وتهكم هل أرداه حسن عنق المحبوبة أم جمال شعرها، أم تراه لحظها لما رمقته بعيون كعيون المها؟

وفي موضع آخر نراه يوظف الاستفهام بالهمزة ليؤكد تفرد الممدوح وشجاعته، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٧٢): (البسيط)

ألم يكن نَهْمةً في كل معركةٍ تخشاه فيها على فرسانه النظرُ

يستأنف الشاعر بيته باستفهام منفي بغرض التوكيد والتقرير وطلب التصديق، فهو يخشى أن يُتهم بالمبالغة في مدحه، فيلجأ إلى وضع المُتَّهِمين في موضع حرج فلا يستطيعون الإنكار. فالممدوح معروف بشجاعته وعلوِّ همته، حتى في المعارك الطاحنة التي يخشى سواه فيها أن يفتحوا أعينهم لهول ما يرونه. ولا شك أن الشاعر لجأ إلى هذا الأسلوب رغبةً منه في انتزاع اعتراف من المخاطبين بعظمة الممدوح. فأفاد استفهامه التقريري التشهيرَ بالممدوح ورفع شأنه (غنام، د.ت، ٩٢٤)، أضف إلى أن دخول الاستفهام مع وجود النفي في الجملة يزيد تأكيد المعنى؛ إذ إن " أكثر الصور التي تدخل فيها الهمزة على حرف نفي يفيد الإثبات" (أبو موسى، ١٩٨٧م، ٢٣٢).

وفي موضع آخر نراه يستخدم همزة التسوية مع أم المعادلة، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٧٥٣): (الوافر)

أأيَّامي أقوِّمُ أم ضُلوعي تناسبنَ انحناءً واعوجاجا

حزيناً محبطاً من واقع لا يتناسب مع طموحاته؛ ينقل الشاعر لنا احتجاجه الصامت على صورة استفهام يسوِّي فيه بين اعوجاج ضلوعه وأيامه، مع عجزه عن تقويم أيٍّ منهما. وقد أفادت الهمزة التصور إضافة إلى معنيي التسوية والتهكم معاً، فهو من جهة عاجز عن تغيير ما آلت إليه أيامه، ومن جهة أخرى هازئٌ بهذا الوضع متذمرٌ منه.

ومن جميل ما له في باب الاستفهام، بيته الذي تناقله النقاد والرواة[٨] مبدين إعجابهم به واستحسانهم إياه، يقول فيه (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٢٣): (البسيط)

كالشمع يبكي وما يدري أدمعته من صحبة النار أم من فرقة العسل

يقف الشاعر متأملاً الشمع في ذوبانه، فيبدو أمام ناظريه شخصاً حزيناً يبكي بلا انقطاع، ولا يدري أبكاؤه هذا بسبب احتراقه بالنار، أم أنه يبكي لأنه أُرغم على مفارقة العسل؟

وفي البيت توظيف حسن لهمزة الاستفهام ضمن السياق، حيث أفادت غرض التصور إضافة إلى إفادتها معنى التعجب. "ومبعث التعجب في الاستفهام أنه سؤال عن أمر مستغرب لإثارة الانتباه له وتوجيه النظر إليه، ويشير التعبير عن التعجب بالاستفهام إلى

[٨] يُنظر مثلاً : البارودي، ١/٩٥

أن ذلك الأمر العجيب جدير بالتأمل والنظر" (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٣). وبذا ينقل الشاعر تأملاته إلى المتلقي ويدعوه إلى مشاركته تعجبه فيها واستغرابه.

٢- طلب التصديق فقط (هل):

تُستخدم الأداة (هل) لطلب التصديق فقط، فلا يُذكر مع المُستَفهَم عنه بها معادل كما في همزة الاستفهام، وهي حرف يدخل في الأصل على الجملة الفعلية؛ لذا ينبغي أن يليها فعل لفظاً أو تقديراً (الميداني، ١٩٩٦م، ٢٦١-٢٦٢)، وهي تخصِّص المضارعَ بالاستقبال، وقد استكره البلاغيون تقديم الاسم على الفعل بعدها، وذلك لأن "التقديم يستدعي حصول التصديق بنفس الفعل، والشك فيما قُدِّم عليه" (القزويني، ٢٠٠٢م،١٠٩). وعلى الرغم من اختصاصها بالجملة الفعلية إلا أنها قد تدخل على الجملة الاسمية لنكتة بلاغية أو للخروج بالاستفهام عن معناه إلى معانٍ أخرى.

تلزم الأداة هل الصدارة في أبيات الغزي، وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد الهمزة من حيث كثرة الورود؛ فتفيد إضافة إلى معنى التصديق كثيراً من المعاني البلاغية الأخرى يأتي في مقدمتها النفي؛ فهي حتى وإن جاءت تحمل معنى الاستنكار أو التعجب مع طلب التصديق إلا أن النفي مضمر فيها يستشعره المتلقي عندما يقف أمام التركيب الاستفهامي فلا يجد له جواباً إلا (لا).

ومن جميل الشواهد له في هذا الباب قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٤٥): (الطويل)

وقالوا: تبدَّل من فؤادك غيره ولا تصطحب قلباً عليك يميلُ

فقلت: وهل يبقى الجديد بحاله وقد صحَّ لي أن القديم يحول

ينصح الناس الشاعر باستبدال قلبه بعد أن ثبتت خيانته واتضح غدره، فما كان منه إلا أن رفض نصيحتهم مبيناً سبب رفضه، فهو يرى أن القديم المُجرب مضمون أكثر من الجديد الغريب، فإذا كان القديم على طول عشرته قد غدر، فلا يُرتجى من الجديد أن يثبت على حال تُرضي صاحبه.

يخرج الشاعر بالاستفهام عن معناه ليفيد معنى النفي، "وللنفي بالاستفهام وجهٌ بلاغيٌّ لا تجده في النفي بأدوات النفي، وهو أن النفي المستفاد من الاستفهام نفيٌ مسلَّمٌ به؛ إذ هو نفيٌ معلوم بالبداهة، والاستفهام وسيلةٌ لانتزاع إقرار المخاطب وتسليمه بهذا النفي" (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٢)، فالشاعر هنا يثبت وجهة نظره ويدعمها بحجة منطقية تنفي ما أراد المخاطبون إثباته وتزيد على ذلك بأن تقنعهم بفكرة الشاعر.

ومن المواضع التي يخرج فيها الاستفهام إلى معنى التهكم قوله مفتخراً بنفسه، هازئاً بخصمه (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٩٢): (الطويل)

وإني لتغنيني عن السيف همتي فهل فيه ما يغنيه عن كف ضارب

يعتز الشاعر بهمته التي ينال بها ما يتمنى، والتي تغنيه عن خوض المعارك واستلال السيوف، في حين لا يملك خصمه ما يتَّقي به كف ضارب إذا ما هاجمه، فنراه ساخراً من شدة ضعف هذا الخصم وقلة حيلته، وقد أفاد الاستفهام في هذا البيت معنيي التهكم والتحقير؛ فالشاعر لا ينتظر من المتلقي جواباً بقدر ما هو حريصٌ على التقليل من شأن الموصوف والسخرية منه.

ومرة أخرى في سياق المدح يوظف الشاعر الاستفهام في خدمة معانيه فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٥٤): (البسيط)

في العلم والجسم لا تخفى زيادته فهل أعادت لنا الأيام طالوتا

فالممدوح رجل فاق أقرانه في العقل كما فاقهم في القوة، فكأنه طالوت في قومه وقد ابتُعِث من جديد، ولنا أن نلحظ أن توظيف الاستفهام في السياق جاء دقيقاً بحيث أدى وظيفته على أتم وجه، فاستحضر في نفس المتلقي هيبة هذا الرجل وأعلى شأنه في تركيبٍ أقرب ما يكون إلى البلاغة والإيجاز.

ولا بد أن تظهر حكمة الشاعر جليةً في شعره، فنراه وقد جرَّب الزمان وأهله يصل إلى حكمة مفادها أن دوام الحال من المحال، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٨٥): (الطويل)

وهل تسلم الدنيا لنا من تناقض وجملةُ أيام الزمان فصولُ

فالدنيا المتقلبة بطبيعة الحال بين ليال وأيام وفصول أربعة تتناوب على مدار العام لا يمكن أن تثبت على حال واحد، ولا يظن عاقلٌ أنها ستخلو يوماً من نقص أو عيب، لذا جاء الاستفهام بهل في البيت لا يحتمل إلا جواباً واحداً، هو النفي الذي استطعنا إدراكه في سياق الفكرة.

وفي سياق آخر يسوق الشاعر قناعاته محتجاً لها بأمثلة حية من الواقع المُعاش، يقول(الغزي ، ٢٠٠٨م، ٧١١): (الطويل)

وهل سالبُ العريانِ إلا مُنبِّهٌ على عدمِ الأشياءِ قَبل وجودها

يبدو الشاعر متهكماً بالذين يسلبون الناس حتى المعدمين منهم، جاعلاً هذا إشارة على أن لكل شيء نهاية مقدرة له قبل أن يبدأ، وقد أفادت (هل) معنى النفي إضافة إلى إفادتها معنى التهكم المرير، فكأن الشاعر بتنبهه لهذا السلب الذي أبدى امتعاضه له قد نفى أن يكون لأي شيء امتداد غير محدود بنهاية.

وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الأداة هل في سياقاتها الشعرية عند الغزي تفيد أكثر ما تفيد تأكيد النفي وانتزاع إقرار المخاطب به حتى مع أفادتها المعاني البلاغية الأخرى، وهذا مصداقٌ لاختصاصها بالتصديق دون سائر الأدوات من جهة، إلا أنه من جهة أخرى إقرار ضمني بأنها أبلغ في النفي من أدوات النفي نفسها، ولنا أن ننظر في قول الغزي الذي يؤكد مع الأمثلة السابقة هذه الفكرة (الغزي، ٢٠٠٨م، ٨٢٣): (الكامل)

هل في مُعاملةِ الهوى من مُرفِقِ أم هل على مَغبونها من مُشفِقِ

إذ يتضح من تأمل معنى الاستفهام في البيت يأس الشاعر من هذه المعاملة المنشودة، وإدراكه استحالة تحقق أمنيته، بالتالي انقلاب المعنى من طلب واستعطاف إلى نفي واستبعاد.

٣- طلب التصور فقط (بقية أدوات الاستفهام):

يُسأل بهذه الأدوات بهدف طلب تصور المسؤول عنه وتحديده، ويختلف المسؤول عنه بين أداة وأخرى؛ فكل أداة من هذه الأدوات تختصُّ بمسؤول عنه معين لا تتعداه إلى سواه، وهذه الأدوات هي: من، ما، كيف، أي، كم، متى، أين، أيان، أنى (عتيق، ٢٠٠٩م، ٩٣).

كيف: تختص كيف بالسؤال عن الكيفية والحال، وهي أكثر أدوات التصور وروداً في شعر الغزي، وهي على كثرة استعمالها تفيد مع الاستفهام أغراضاً أخرى على رأسها التعجب والاستنكار، وهي توظف في كل ذلك توظيفاً مستحسناً، من ذلك مثلاً قول الشاعر في معرض المديح (الغزي، ٢٠٠٩م، ٣٥٦): (البسيط)

فكيف قُربكَ لم يَصقُل خلائقهم وقد يضيءُ بقربِ الكوكبِ الغَسقُ

فهو يستهجن سوء خلق حاشية الممدوح مع قربهم منه ومعاشرتهم له، مستغرباً كيف لم يقتدوا به ولم يتخلقوا بأخلاقه، مشبهاً حالهم ذاك بحال النجوم التي تنير ما قاربها من الكواكب المعتمة، وهو تشبيه ضمني ساق المعنى في صورة حسنة.

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر لا يستفهم بقدر ما يستنكر؛ إذ تخرج أداة الاستفهام مع التركيب الذي وردت به من معنى الاستفهام إلى معنى الإنكار التوبيخي؛ لأن ما يتوجه إليه الإنكار لا ينبغي له أن يكون، وهذا يقع في حال كان الفعل المقصود بالاستفهام الإنكاري مضارعاً، وهذا ما يجعل التوبيخ واقعاً على ترك فعل كان ينبغي له أن يكون (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٣).

وله في الغزل بيت حسن المعنى يلجأ فيه للطباق سعياً في تعزيز قيمة التعجب الحاصل من الاستفهام، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٧١): (الخفيف)

وعجيبٌ من خده كيف يبقى ماؤه بين جمرةٍ ودخان

حيث يستغرب الشاعر تجاور الضدين المتناقضين في خد المحبوبة؛ فدموعها الرقراقة تنساب بجوار جمرات خدها الموشك على الاحتراق لشدة احمراره، من دون أن يكون لأحدهما تأثير في الآخر، ولا شك أن الشاعر هنا لا يستفهم عن كيفية هذا البقاء بقدر ما يبدي تعجبه منه؛ رغبةً منه في استثارة انتباه المتلقين للنظر في هذه الظاهرة العجيبة الجديرة بالاهتمام.

وفي سياق الهجاء يوظف الشاعر التضاد مرة أخرى في حضرة الاستفهام ليرقى بمعانيه ويُعظم شأنها، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٥٩): (البسيط)

أعجبْ بهم قطُّ في الآراء ما اتفقوا فكيف في سدِّ باب الجود ما اختلفوا

يقف الشاعر مشدوهاً أمام هؤلاء القوم الذين لا يتفقون على رأي ولا يجتمعون على مشورة، مستغرباً كيف اتفقوا أخيراً وأجمعوا أمرهم ليغلقوا كل منافذ الكرم والعطاء، ويتباروا من ثَمَّ بالبخل والصدِّ، وهو في بيته يخرج بالاستفهام عن معناه ليفيد معنى السخرية والتهكم، يدعمه في ذلك أسلوب التعجب في بداية البيت، إضافة إلى الأثر المستحسن الذي جاء به الطباق الواقع بين (اتفقوا، واختلفوا).

وفي موضع آخر نراه يعيب على من يبخسون الشعراء في العطاء، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٤٠): (البسيط)

فكيف لم تفضحوا من يبتغي شرفاً ويجعل البخس للأشعار أثمانا

فنراه وقد تعجب كيف يتستَّر الناس على هذا الصنف الدنيء من الولاة؛ فمن التناقض برأيه أن يسعى المرء لنيل المجد والشرف وهو لا يؤدي إلى مادحيه حقوقهم من العطايا، وقد أفاد الاستفهام في هذا البيت معنى الإنكار التوبيخي إضافة إلى معنى التعجب، ولعل سبب إفادة الإنكار في هذا التركيب هو الرغبة في تنبيه "السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب" (الجرجاني، د.ت، ١١٩). فالشاعر الذي بُخس حقه يستنكر على الناس تستُّرهم على هذا الرجل وصمتهم عن فعلته.

وفي سياق الشكوى من لوعة الحب، يبرع الشاعر في الخروج بالاستفهام عن معناه لخدمة السياق، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٦٥): (الطويل)

وكيف تريحُ الريحُ من كُربةِ النوى وعلَّتهُ هجرُ الحبيبِ وصدُّه

يستبعد الشاعر أن تكون الريح قادرة على انتشال المحب من براثن اليأس والحزن، فالريح بكل ما أوتيت من قوة وحنوٍ لا تستطيع أن تسلي من هجره الحبيب وابتعد عنه، والشاعر هنا يتساءل بيأس عن كيفية الوصول لهذه الراحة البعيدة المنال، موظفاً الاستفهام في السياق لإفادة معاني التحسر والاستبعاد والنفي، وقد تعاضد الاستفهام لأداء هذه المعاني مع الطباق في قوله (تريح، كربة)، إضافة إلى الجناس الاشتقاقي في (تريح والريح) الذي كان له أثر في وقع البيت وموسيقاه.

وقد ترد الأداة كيف بمعناها الأصلي؛ فإذا بالشاعر يتساءل عن الكيفية لا أكثر، يقول: (الغزي، ٢٠٠٨من ٧٢٦)(البسيط)

حلَّ الهوى بمكانِ الروحِ من جسدي فكيفَ يُدركهُ ما جالَ في خَلَدي
أم كيـف أنعته والحـبُّ مختلـــفٌ كالبحرِ منتصـــفٌ بالدرِّ والزَبَدِ

احتل الهوى قلب الشاعر واستملكه؛ فتملكته الحيرة أمام هذا الشعور الغريب الذي لا يُدرك بالعقل ولا يمكن وصفه لاحتوائه الخير والشر معاً، وهو يشبهه بالبحر الذي يحمل كلاً من الزبد والدرر.

يكرر الشاعر الاستفهام مرتين، فيتساءل في المرة الأولى عن الكيفية التي سيدرك بها ماهية هذا الحب وقد سلبه جنانه، أما في المرة الثانية فهو يتساءل عن الطريقة التي قد يصف بها هذا الشعور وهو كالبحر المحمل بما يحب وما يكره.

وربما أمكننا القول: إن الأداة كيف تفيد عند الغزي التعجب أكثر من غيره من المعاني البلاغية، ولربما اشترك التعجب مع معنى آخر كالاستنكار أو النفي أو الاستبعاد؛ إلا أنه وإن كان يحضر أحياناً ردفاً لتلك المعاني؛ فهو يرد تعزيزاً للمعنى الأصلي في أحيان أخرى، والناظر في الأبيات التي وُظفت فيها كيف يستوقفه حضور معنى التعجب فيها، ويمكننا التمثيل لذلك بقوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٧٣٢): (الخفيف)

كيف لا ينفر الغزال من الشيـ ـب ومن عادة الظباء النفورُ

فالأداة هنا وإن كانت في حقيقتها استفهام عن الكيفية، فهي تحمل في طياتها تعجباً ظاهراً من مخالفة هذه المرأة الغزال لطبع النساء المعروف في النفور من الشيب، ومما يدعم ذلك أيضاً قوله في موضع آخر (الغزي، ٢٠٠٨م، ٦٩٢): (الطويل)

فكيف أخاف الفقر أو أرهب العِدى ولي منهما ما عشتُ كنزٌ ومُرهَفُ

فالشاعر المستسلم لدوام فقره وكثرة أعدائه؛ يسخر ممن يحاولون تخويفه بأي منهما، فهو لا يملك ما يخسره ويخشى عليه؛ فهو في حياته المريرة لم يكتنز إلا الفقر والحاجة، وكان مع ذلك كثير الأعداء والحساد، فكأنه في بيته يهزأ بهم ويعجب لضيق فهمهم.

أين: وهي اسم يستفهم به في الأصل عن المكان، ولكنه كما أسماء الاستفهام الأخرى قد يخرج عن معناه إلى معانٍ أخرى يفرضها السياق، ولهذه الأداة حضور غير قليل في شعر الغزي؛ فهو يوظف هذه الأداة غالباً في سياق الحنين والاشتياق للزمان الماضي أو التحسر على أيام الشباب، من ذلك قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٢٥): (البسيط)

أين الكرى والكرا الموصول آخره بالميم والهاء بل أين الأصيحاب

يبدو الشاعر في بيته حزيناً على زمن تصرَّم وانقضى، أيام كان للنوم لذة لا يدركها الآن بعد أن رحل أصحابه وانقطعت صلاته بهم، ونراه متحسراً على تلاشي كرامته التي لم يصرح بذكرها؛ بل ورّى دونها بشيء من الإلغاز، مجانساً بين لفظ الكرى وجزء من لفظ الكرامة هو الكرا، وقد زاد استفهامه بالأداة أين مكررة مرتين في رصيد المعاني في البيت؛ إذ أفاد معنى التحسر ووقف بالمتلقي على شدة لوعة الشاعر وحزنه على أيامه التي انقضت.

وفي سياق الرثاء يبرع الشاعر في توظيف الاستفهام لغرض التحسر أيضاً، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٧٠): (البسيط)

أين الإمام الذي كان الزمان له كالغمد جُرِّد منه الصارمُ الذكرُ

يبكي الشاعر الإمام الراحل الذي ساد الزمان وأهله، فكان كالسيف القاطع المجرد من غمده، وما كان غمده إلى زمانه ذاك، فكأن الشاعر بسؤاله (أين الزمان) يود لو عاد ذاك الزمان بإمامه ويتحسر على انقضائه واستحالة عودته.

أما في سياق المدح، فيبرع الشاعر في إصابة هدفين معاً، فيجمع في بيته مدح ممدوحه والتعريض بخصومه في آن، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٦٧): (الطويل)

سريعُ العطايا يسبقُ القولَ فعلُهُ وأين الذي لا يسبقُ الفعلَ وعدُهُ؟

فالممدوح يجزل العطاء للشعراء ويكرمهم، وهو سبَّاق بالخيرات لا يعد وعداً يخلفه؛ بل تسبق أفعالُه وعودَه، ويبدو الشاعر معجباً بهذه الخصلة في ممدوحه معرضاً في ذات الوقت بقومٍ آخرين لا يفون بوعودهم ويماطلون فيها.

ومن جميل ما له في هذا الباب قوله في سياق الغزل (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٩٥): (الوافر)

أريني أين حلَّ هواي إنّي جعلت محله قلبي فذابا

يتساءل الشاعر عن موضع احتفاظ المحبوبة بحبه، فقد حار أين يضعه فانتهى به المطاف بحمله داخل قلبه الذي ذاب لشدة حرارة هذا الحب واشتعاله، فكأنه يتساءل: ترى هل تعاني المحبوبة لوعة الهوى كما يعاني هو؟ وإن كانت تعاني فلماذا لا تظهر آثار هذه المعاناة عليها؟

ومن الملاحظ في هذا البيت أن الأداة تراجعت عن صدارة البيت ليحتل فعل الأمر مكانها؛ إذ يقرن الشاعر الطلب بصيغة الأمر مع الاستفهام في سياق مشترك، فيؤكد رغبته في الحصول على جواب شافٍ لسؤاله.

ونراه يسعى مرة أخرى لصوغ حكمته وخلاصة تجربته في شعره، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٠٢): (البسيط)

أين الذي مَلَك الدنيا وضنَّ بها

فالشاعر المدرك لمآل الأمور موقنٌ أن الدنيا لا تدوم لأحد، فحتى أولئك الذين ملكوها وتنافسوا فيها حريصين عليها رحلوا وما أخذوا معهم شيئاً منها، والشاعر هنا يحمِّل استفهامه معاني التهكم والتحقير، فهو يستصغر هؤلاء القوم بفعلتهم هذه ويستحقرهم لحرصهم الذي ما نالهم منه إلا الأذى وسوء الذكر، وهو مع ذلك حريص كل الحرص على إقناع المتلقي بفكرته ودفعه إلى الإقرار بحقيقة فناء الدنيا وعدم دوام الملك.

وفي سياق تحسره على انقضاء شبابه، يفيد الشاعر مرة أخرى من الاستفهام بالأداة أين، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٧٠): (الخفيف)

أين دعواك والغواني غواني والمغاني واللفظ حاز المعاني

يستذكر الشاعر أيام شبابه حين كان قادراً على إثارة انتباه النساء الحسناوات، أيام كان يشاركهن مجالس الطرب التي كانت تصدح فيها المعازف، فكأنه يقول: أين أنت الآن من ذلك الزمن الجميل؟

ولعل مصدر التأثير في مثل هذه الأمثلة " أن الاستفهام حقق نوعاً من الملاينة والملاطفة؛ إذ إن تحصيل المعنى المتواري خلف ظاهر الاستفهام يجعل التعبير أبلغ وآكد في المعنى، يُضاف إلى ذلك أن تحصيل المعنى المطلوب من ظاهر لفظ غير مطلوب يضاعف ابتهاج العقل، ويحفز متعة التقصي في التقاط المعنى بعد شيء من البحث أو النظر" (فاعور، ٢٠١٩م، ١٠٧).

ما: وهي اسم من أسماء الاستفهام، وتعني "أي شيء؟" يُستفهم بها عن غير العقلاء، "والمطلوب بها أحد أمور ثلاثة: الأمر الأول: إيضاح الاسم وشرحه... الأمر الثاني: بيان حقيقة المُسمَّى... الأمر الثالث: بيان صفات المسؤول عنه وأحواله الخاصة أو العامة..." (الميداني، ١٩٩٦م، ١/٢٦٤).

ولهذه الأداة حضور لافت في شعر الغزي؛ ولا سيما في سياق اللوم والاستنكار، ومن جميل الأمثلة على استعمال الغزي لهذه الأداة قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٥٨): (الكامل)

لو لم أمتْ بهواك قال العذَّلُ ما قيمةُ السيفِ الذي لا يقتلُ

فالشاعر يبحث عن عذر لشدة معاناته في الهوى، فيقف أخيراً على حجة تدعم موقفه، فهو إن أظهر الجَلَد والصبر على هواه هزئ العاذلون بهذا الهوى الذي لا يملك القدرة على التأثير في صاحبه، جاعلين الهوى كالسيف الذي إن لم يقتل كان مزوَّراً؛ لذا كان لا بد له من تجرع مرارة هذا الهوى وإظهار مواجعه لهم تجنباً للومهم.

وقد جاء الاستفهام في هذا البيت على لسان هؤلاء العاذلين الذين أظهروا باستفهامهم تعجباً يضمر تهكماً بهذا الهوى المُدَّعى.

وفي سياق الغزل أيضاً، يسوق الشاعر معنىً لطيفاً فيه علةٌ مبتكرة، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٧٣): (الخفيف)

مُنية الحب في الفؤاد فما با لي أهوى من لم يدع لي فؤادا

فغاية ما يتمنى المُحب أن يستوطن الحب فؤاده ويعمره، إلا أن محبوبة الشاعر اختطفت فؤاده ولم تترك له ما يعمره بحبها. فنراه يتساءل في حيرة عن كيفية حبه لها وقد اختطفت فؤاده الذي هو آلة هذا الحب ووسيلته، وقد برع الشاعر في إبراز معانيه بالصورة الأمثل موظفاً الاستفهام في تجسيد صورة العاشق الحائر مسلوب الإرادة.

يلجأ الشاعر إلى استخدام (ما) مقرونة باسم الإشارة في بعض المواضع، وهذا ما يرفد في الأداة تأكيدها على طلب معرفة ماهيَّة المسؤول عنه، من ذلك قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٦٦): (الكامل)

ماذا دعاكِ إلى احتمالكِ برقعاً وسواكِ في كِللٍ من الأغطاش

فالشاعر يسأل هذه المرأة عن السبب الذي دفعها لستر وجهها مع أن الجميع حولها ضعاف البصر، وقد يكون قصد ذلك على وجه الحقيقة إلا أن المعنى المجازي هو الأرجح؛ أي: أن يكون قصد أنهم عديمو الذائقة إذا لم يلحظوا حسن هذه المرأة، أو أن عندهم ما يشغلهم عن تتبع محاسنها؛ لذا يرى الشاعر أن برقعها عديم الجدوى.

يفيد الاستفهام في هذا البيت معنى الاستنكار والتعجب، فكيف بمن يحيا بين عُمْشٍ أن يكلف نفسه عناء ارتداء البرقع ويحتمل ما في ذلك من مشقة، فإذا كان الهدف أمنَ الفتنة فقد تحقق بضعف أبصارهم فلا حاجة إلى زيادة العبء بارتدائه.

وقد يستعين الشاعر لأداء معانيه بحروف الجر التي تضيف إلى معاني الأداة (ما) ما يزيد صلتها بالسياق، من ذلك مثلاً استعماله لها مقرونة بلام الجر، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٦٦): (الطويل)

وكم قائلٍ ألزمتَ نفســـــك مذهباً يشقُّ وحملُ الفادحات يؤودُ

إذا كنتَ صبَّاً لِمْ تصفْ قمرَ الدُّجى ولِمْ تكترثْ بالخوطِ وهو يميدُ

فقلـــت له: ذرني أفضِّلُ كامـــــلاً إذا لم يكن فوق الكمال مزيد

يلوم الناس الشاعر على اتخاذه مذهباً صعباً في شعره، ويستفسرون عن سبب تجشمه عناء وصف القمر والتغزل بالقدود المتمايلة عند افتتاح قصائده، فلو كان عاشقاً حقيقياً لما وصف هذه الأشياء ولاكتفى بغرضه الأساسي من القصيدة، فيخبرهم أنه رجل ينشد الكمال في كل ما يطلبه، وقد جاء الاستفهام في البيت على صيغة (لِمَ) إلا أن الشاعر سكَّن الميم لضرورة الوزن، وقد تبدَّى من السياق أن الاستفهام أفاد استنكار المخاطبين لفعل الشاعر مع سعيهم في ذات الوقت للحصول على إجابة ترضي فضولهم.

وفي موضع آخر يجمع الشاعر بين (ما) و(إلى)، متسائلاً عن سبب اللوم الموجه إليه، قائلاً (الغزي، ٢٠٠٨م، ٤٧٠): (الوافر)

إلامَ أُلامُ في نسجِ القوافي على منوالِ تمشيةِ المحالُ

فالناس لا يتوقفون عن لوم الشاعر على نظم قوافيه وتجويدها، وهو يتساءل في ضجر متى ينتهي كل هذا، فهو مدرك وهم مدركون أنه لن يرتدع بلومهم ولكنه ملَّ سماعه.

ومرة أخرى يستخدم ذات التركيب (إلام) بذات المعنى وهو (إلى متى)، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٠٩): (الطويل)

إلامَ أغطي بالخمول فضيلتي وشمس الضحى لا بد أن تخرق الدَّجنا

إذ يبدو الشاعر في بيته مُكرهاً على ستر محاسنه بخموله، وكارهاً في ذات الوقت لهذا الخمول الذي يحجب عنه كثيراً من الفضل، مشبهاً وضعه هذا بالظلام الذي لا يستطيع أن يستر الشمس طويلاً فهي لا شك ستخترقه يوماً بنورها.

أيّ: اسم من أسماء الاستفهام، يُستفهم به "لتعيين أحد المتشاركين في أمر يعمُّهما، سواءٌ أكانا شخصين ممن يعقل، أم مما لا يعقل، أو زمانين، أو مكانين، أو حالين، أو عددين، أو غير ذلك... "(الميداني، ١٩٩٦، ١/٢٦٩)، ويترتب على هذا أن تكون دلالة هذه الأداة مستمدَّةً "مما تضاف إليه، فتفيد المعنى الذي تفيده أدوات الاستفهام من السؤال عن العاقل، وغير العاقل، والزمان، والمكان، والحال، والعدد"(العاكوب والشتيوي، ١٩٩٣م، ٢٧١).

ولها في شعر الغزي حضور ملحوظ؛ حيث تتنوع وظيفتها ومعانيها تبعاً للسياق الذي ترد فيه، من ذلك قوله (الغزي، ٢٠٠٨م، ٣٨٤): (الوافر)

وكان الخطبُ في التقديرِ صَعباً فهانَ وأيُّ صعبٍ لا يَهونُ

لا شك أن المرء يستصعب دائماً ما يعترضه من عقبات، إلا أنه بمزيد من إصرار وصبر يستطيع تجاوزها، وها هو ذا الغزي يؤكد لنا بعد تجربته أن الصعب سيهون في نهاية الأمر مهما بدا هذا مستحيلاً، وقد أفاد استفهامه التقرير، فغدا تركيبه (وأيُّ صعب لا يهون؟) بمعنى (سيهون كل صعب).

وفي معرض الغزل يسوق الشاعر معانيه على بساط من الرقة، فيقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٤٣): (الكامل)

لم أدرِ من جهلٍ بوقت زيارةٍ وافينَ صبحاً أم أردن هجوما

شغفت بريَّاهن أنفاس الصَّبا فسألـــتُ أيُّهما أرقُّ نسـيما

يسعد الشاعر بزيارة مفاجئة لهؤلاء النسوة اللاتي جئن مبكراً حتى ظن الشاعر أنهن اعتزمن القتال، وقد تسابقت ريح الصبا مع روائحهن الزكية مما جعل الشاعر دهشاً متعجباً: أي الريحين أعذب وأرق.

يستفهم الشاعر في البيت الأول بهمزة استفهام محذوفة، وهو أسلوب لغوي يفيد تبادل المواضع بين الخبر والإنشاء، "بهدف تحقيق فوائد بلاغية ومعانٍ زائدة بهذا التبادل المقصود، الذي يحدده السياق والقرائن التي تحفُّ بالكلام" (فاعور، ٢٠١٩م، ١١١)؛ إذ يسوق الاستفهام مساق الخبر، بغرض إنزال التأكيد موضع التردد، والإثبات موضع الشك، أما في البيت الثاني فالشاعر حائر بين خيارين يذكرهما لبيان شدة وجده، وقد أسهم الاستفهام في رفد معاني البيت بالتراكيب التي تبرزها بأحسن صورة ممكنة.

وله في المدح بيت حسن يخرج فيه الاستفهام عن معناه، يقول (الغزي، ٢٠٠٨م، ٥٦٤): (الوافر)

محلكَ في السماء فأيُّ شيءٍ أمتُّ به إلى السبع الشداد

يجعل الشاعر لممدوحه منزلة عالية لا يستطيع أحد أن ينالها، والشاعر يتمنى لو امتلك وسيلة ما للارتقاء إلى علياء هذا الممدوح ونيل رضاه. وقد أفاد الاستفهام في البيت التمني؛ إذ يطلب الشاعر أمراً محبوباً بعيد المنال، ولعل بلاغة التمني بالاستفهام نابعة في الأصل مما فيه من "إشارة إلى اختلاط الواقع بالخيال لدى المتكلم، حتى يحسب الأمر البعيد قريباً، والأمر المتعذر ممكناً... غير أن رغبة السائل الشديدة في حصول خلاف ما يعلمه علم اليقين تُلجئه إلى هذا الاستفهام على سبيل التمني، وذلك ما يجعل الأسلوب

نابضاً بالإيحاء" (الحمصي، ٢٠١٦م، ٦٧٤)، وربما أمكن القول إن في البيت شيئاً من معاني التعظيم أيضاً، فقد بدا الشاعر مُعجباً بالممدوح ومكبراً لشأنه.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه المعاني البلاغية التي تفيدها هذه الأداة والأدوات الاستفهامية الأخرى هي في صميم المعنى الأصلي لها وهي جزء لا يتجزأ من دلالتها الحقيقية، وإن كان يطغى عليها في بعض الأحيان وليجعل الدلالة دقيقة ومحصورة في حيز معين يناسب السياق، فمتأمل هذه المعاني سيجدها منسجمة مع الأصل الذي وُضعت له أدوات الاستفهام؛ لأن المُستَفهِم عن شيء إما أن يقرره، أو يوبخ عليه، أو يأمر به، أو يستبعده.. (عباس، ١٩٩٧م، ٢٠٤-٢٠٥).

النتائج:

توصل هذا البحث إلى جملة من النتائج، هي:

١. يعدُّ أسلوب الاستفهام أكثر الأساليب الإنشائية حضوراً في شعر الغزي.

٢. استشفاف قدرة الشاعر على توظيف مختلف الأدوات الاستفهامية في نصوصه؛ فتفيد إلى جانب معناها الحقيقي كثيراً من المعاني المجازية؛ أبرزها: الإنكار والتعجب والنفي والتقرير.

٣. كانت الهمزة أكثر أدوات الاستفهام حضوراً في شعر الغزي، وهي تحضر أكثر ما تحضر في مقدمات قصائده، وتخرج عن معناها في بعض المواضع فتفيد الإنكار والتعجب أكثر من غيرهما من المعاني البلاغية الأخرى.

٤. تأتي الأداة هل في المرتبة الثانية بعد الهمزة من حيث كثرة الورود في شعر الغزي، وهي تفيد كثيراً من المعاني البلاغية التي يجمع بينها تداخلها مع النفي، وقد ثبت أن النفي بهل أبلغ من النفي بأدوات النفي، لأن الاستفهام الذي يخرج إلى معنى النفي فيه انتزاع إقرار المخاطب وتسليمه بهذا الأمر المنفي، وهو ما يدخل في باب التصديق الذي تختص به هذه الأداة.

٥. أكثر أدوات التصور حضوراً في شعره هي كيف، وهي تخرج إلى معانٍ بلاغية كثيرة على رأسها التعجب؛ وفيه يرفد الشاعر استفهامه بالتضاد بحيث يعزز تعجبه واستغرابه من اجتماع المتناقضات واشتراكها في حيز واحد.

٦. يوظف الشاعر الأداة (أين) في سياق الحنين والاشتياق للماضي والتحسر على انقضاء أيام الشباب.

٧. يبرع الغزي في ربط الاستفهام بسياقه المعنوي، ويلجأ في بعض الأحيان للإفادة من اتصال أداة الاستفهام بحروف الجر، كما في استخدامه للأداة ما التي تقترن أحياناً بحرفي الجر (اللام، وإلى)؛ وهذا ما يزيد في المعنى البلاغي للأداة.

٨. يقرن الشاعر الأداة ما باسم الإشارة (ذا) فتفيد بذلك تأكيد الشاعر وإصراره على معرفة ماهية المسؤول عنه وطبيعته المتوارية خلف حجابٍ من عدم الإدراك.

٩. تتعدد المعاني البلاغية التي تفيدها الأداة (أي) في شعره وتتنوع هذه المعاني تبعاً لما يضاف إليها من جهة؛ وللسياق الذي ترد فيه من جهة أخرى.

التمويل:

معلومات التمويل: هذا البحث ممول من قبل جامعة دمشق وفق رقم الممول: (501100020595).

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

المراجع:

١. ابن خلكان. أبو العباس شمس الدين(ت٦٨١هـ). (د.ت). وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان. تح: إحسان عباس. دار صادر.
٢. ابن منظور. جمال الدين محمد بن مكرم(ت٧١١هـ). (د.ت). لسان العرب. دار صادر.
٣. أبو علي. محمد بركات حمدي. (١٩٨٨م). مفهوم المعنى بين الأدب والبلاغة. دار البشير.
٤. أبو موسى. محمد. (١٩٨٧م). دلالات التراكيب (دراسة بلاغية). ط٢. مكتبة وهبة.
٥. البارودي. محمود سامي. (د.ت). مختارات البارودي. دار العلم للجميع.
٦. الجرجاني. عبد القاهر(ت٤٧١هـ). (د.ت). دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه: محمود شاكر. (د.ن).
٧. الحمصي. محمد طاهر. (٢٠١٦م). الاستفهام بين النحاة والبلاغيين. مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة. (العدد ٣٥). ص: ٦٦٩-٦٨٧.
٨. الزركلي. خير الدين. (د.ت). الأعلام. دار العلم للملايين.
٩. السبكي. بهاء الدين(ت٧٧٣هـ). (٢٠٠١م). عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تح: خليل إبراهيم خليل. ط١. دار الكتب العلمية.
١٠. السكاكي. أبو يعقوب(ت٦٢٦هـ). (١٩٨٧م). مفتاح العلوم. ضبطه وكتب فهارسه: نعيم زرزور. دار الكتب العلمية.
١١. سيبويه. أبو بشر عمرو بن عثمان(ت١٨٠هـ). الكتاب. تح: عبد السلام هارون. ط٣. مكتبة الخانجي بالقاهرة.
١٢. شيخ أمين. بكري. (١٩٩٩م). البلاغة في ثوبها الجديد (المعاني). ط٦. دار العلم للملايين.
١٣. الصفدي. صلاح الدين(٧٦٤هـ). (د.ت). الوافي بالوفيات. تح: هلموت ريتر وآخرين. (د.ن).
١٤. العاكوب. عيسى. (٢٠٠٠م). المفصل في علوم البلاغة العربية. منشورات جامعة حلب.
١٥. العاكوب. عيسى. والشتيوي. علي. (١٩٩٣م). الكافي في علوم البلاغة العربية. منشورات الجامعة المفتوحة.
١٦. عباس. فضل حسن. (١٩٩٧م). البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني). ط٤. دار الفرقان.
١٧. عتيق. عبد العزيز. (٢٠٠٩م). علم المعاني. ط١. دار النهضة العربية.
١٨. الغزي. أبو إسحاق(ت٥٢٣هـ). (٢٠٠٨م). ديوان الغزي. تح: عبد الرزاق حسين. ط١. مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.
١٩. غنام. محمد فواز عرسان. (د.ت). همزة الاستفهام وما يليها بلاغياً ونفسياً. مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور. ص:٩١٧-٩٤٢.
٢٠. فاعور. منيرة محمد. (٢٠١٩م). الأجوبة المسكتة فن الإقناع والإمتاع. الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة.
٢١. القزويني. جلال الدين الخطيب(ت٧٣٩هـ). (٢٠٠٢م). الإيضاح في علوم البلاغة. وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين. ط١. دار الكتب العلمية.
٢٢. كحالة. عمر. (١٩٦٨م). معجم قبائل العرب. دار العلم للملايين.
٢٣. الميداني. عبد الرحمن. (١٩٩٦م). البلاغة أسسها وعلومها وفنونها. ط١. دار القلم.